رابعاً: الطقوس القديمة التي كانت سائدة في تلك الأزمنة

كان للسحر أكبر الأثر في تلك الطقوس حيث أن الكهنة هم أيضاً السحرة الذين يقومون بإعداد و صفات العلاج من الأعشاب الطبيعية لزعيم القبيلة أو الحاكم منها ما يؤدى إلى تقوية جسده، واطالة عمره.

لإخضاع السحر لإرادة الإنسان، ولذلك لا يمكن فصل السحر عن الدين لتداخلهما معاً، ولقيام رجل واحد بهذه المهام في آن واحد.

ولعل أغرب وأقرب الأمثلة على ذلك ما كان يفعله الزراع في القبائل الزراعية البدائية عندما يريدون نمو النبات إلى ارتفاع كبير فيذهب المزارع في حقله وقت تفتح براعم الحبوب –فيقوم بأداء بعض الألفاظ والحركات البهلوانية مثل القفز العالي في الهواء لكي ينمو النبات وبكبر ويرتفع مثل قفزته العالية.

وإذا أرادوا هطول الأمطار لري زروعهم ونباتاتهم يقوم المزارعون بالذهاب إلى المذحدرات ثم يدحرجون الأحجار من فوق هذه المذحدرات وهم يدقون الطبول ويصرخون صرخات هيسترية عالية لإحداث عاصفة رعدية تتسبب في هطول الأمطار.

ولعل أخطر أنواع السحر البدائي في القبائل البدائية كان هو "السحر الأسود" سحر أذى الغير واهلكهم.

وكما كان يوجد قديماً في القبائل البدائية في الديانات البدائية بين هذه القبائل علاقة وثيقة بين السحر وبين العرافة أي التوافق مع القوى الروحية وإدراك ما هو غامض وخفي في الحاضر والمستقبل، فالعراف: هو يعمل في التنجيم وقراءة الطالع سواء كان رجل او امرأة، وقد يستخدم قواه السحرية الكامنة فيه، أو قد يوطد علاقات بينه وبين عالم الأرواح وبخاصة أرواح الموتى من البشر.

وبهذه الطريقة يحصل العراف على المعلومات المطلوبة عن الأشخاص أو أحداث الأرض التي حدثت بها أو فوقها أو تحتها.

والمعتقدات السائدة في هذه القبائل البدائية ان العراف يكون على اتصال بعالم الأرواح أو روح معينة تلازمه تطلعه على الخفايا والأسرار، وقد يكون للعراف مظهر ديني موقر يمليه عليه علوى عن طريق الأحلام والرؤيا أو كلام الآلهة، كما كان يفعل الأغريق قديماً لإيمانهم بها في الأساطير العديدة من دينهم القديم.

ومن أهم مظاهر العراف أو العرافة قراءة الطوالع في طيران الطيور أو ق صف الرعد أو ظهور المذنبات في الجو، أو حالات الكسوف والخسوف والحوادث المفاجئة أو غير ذلك من الظواهر.

وقد كان العراف من أهم ضرورات لحياة البدائية للإن سان البدائي بحيث نجده في كل الأديان البدائية القديمة آنذاك.

ولعله من أغرب العادات القديمة وأكثرها احتراماً وتقديراً تلك العادة الشائعة عن احترام الزعماء في القبائل البدائية في شـــتى الأقطار حيث يعتبر شـــخص الزعيم من الحرمات المقدســـة التي لا يمكن الاقتراب منها أو ملامســـة ثيابه أو أدوات طعامه، أو حتى البسط والحصائر التي ينام عليها لإيمانهم المطلق بأن الزعيم مشحون بقوة عظيمة بحيث يتعرض للخطر الجسيم كل من يلمسه أو يلمس ثيابه.

كما قد تكون هناك أرواح نجسة أو مدنسة تسكن في أسرة أو قرية، مما يتطلب إجراء طقوس معينة للتطهير وطرد الروح من مكمنها، **وذلك بعدة طقوس مختلفة منها** –

١– الصوم والامتناع عن الأكل وقص الشعر والأظافر.

٢– الزحف وسط أبخرة من الدخان.

٣– القفز فوق النيران.

٤– الغسيل بالماء والدم أو إحداث جرح في الجسم لخروج الروح الشريرة منه مع الدم الذي يخرج عندئذ.

خامساً: اديان بلاد الرافدين

لم يتفق علماء الأديان على طريقة واحدة لذ شأة الدين الأولى، ففريق منهم تعمق في معتقدات الأقوام السابقة، وفي أساطيرها معتمدا في ذلك على الأنتروبولوجيا وفريق آخر اهتم بدرا سة أو ضاعها الاجتماعية، أما الفريق الثالث فبحث في أو صاف الآلهة معتمدا في ذلك على اشـــتقاق اللغة –الفيولوجيا– وكان لا بد لهذه الطرق في البحث أن تنتهي إلى نتائج مختلفة، وقد تبين لعلماء الأديان والاجتماع أن أديان الشـــعوب القديمة هي ذاتها خلاصـــة تطورات حدثت في أجيال، ولكي يتم الاطلاع على الوضـــع الديني الأول يجب التعمق في بحث الأديان لإرجاع كل منها إلى أ صله حتى يـ سهل الو صول

للدين الأول ومعرفة ما اقتبسه من الأديان الأخرى، وكيف انتهى وضعه المعروف ولا يتم ذلك إلا بدراسة الأديان والانتقال منها إلى الأديان السماوية المتكاملة.

ورغم تشابه خصائص الديانات القديمة، إلا أن طرق البحث أدت بعلماء الأديان إلى إيجاد العديد من الخصائص المختلفة بين هذه الأديان وأدى هذا الاختلاف إلى تعدد النظريات في نشأة الدين، فالعلماء الذين اعتمدوا على الانتروبولوجيا ودرسوا معتقدات الشعوب القديمة وأساطيرها وضعوا "النظرية الروحية" التي تقرر أن البشر الأوائل عبدوا الروح واعتقدوا أن لجميع الموجودات روحا ســـواء كان حيوانا أو نباتا أو كان جمادا، فعبد الإنسان أرواح الموتى فمظاهر الطبيعة بوصفها ذات أرواح، ثم انتقل إلى الوثنية فعبادة آلهة.

وأما العلماء الذين درسوا الأوضاع الاجتماعية لتلك الأقوام فقد وضعوا "نظرية الطوطمية" أي أن الجماعات البشـــرية الأولى جعلت أحد الموجودات حيوانا أو نباتا أو جمادا شعارا مقدسا لها واجتمعت حوله واهتمت به.

فيما ذهب العلماء الذين حاولوا أن يتوصـــلوا إلى الدين الأول عن طريق انشـــقاق اللغة "الفيلولوجيا" والمقارنة بين أوصاف الآلهة، فقد وضعوا "نظرية الطبيعة" أي أن القدماء كانوا يعبدون مظاهر الطبيعة، حيث زعم أنصـــار هذه النظرية أن خوف الإنســـان من مظاهر الطبيعة كالرعد، الأمطار، الزلازل...جعله يتقرب إليها ويدعوها ويتوســـل لها وينذر إليها النذور ويقرب لها القرابين.

والشيء الوحيد الذي تشترك فيه هذه النظريات هو القول بأن الدين سلك على مر القرون مسلك التطور، فنشأ الدين في بدايته بحالة ساذجة، ثم أخذ يتطور حتى بلغ بالأديان العامة مبلغه من الكمال، ومبدأ التطور الذي يتحكم في جميع النتاجات البشرية سواء كانت تلك النتاجات مادية أو فكرية يفرض علينا القول بأن المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية لا بد وأن تكون متشبعة من المعتقدات التي سادت خلال العصور الحجرية مرورا بالحضارات الزراعية، وعن مبدأ تطور الدين يقول جفري بارندر: "لا بد أن الحس الديني قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان، فاختلف وفقا لمراحل كثيرة لإرتباطه ارتباطا وثيقا بالإطار الثقافي الذي وجد فيه".

ويذهب طه باقر إلى اعتبار العصـــر الحجري القديم بداية لظهور الدين، حيث وجدت في جدران الكهوف رسومات وصور ملونة دقيقة، وأغلب هذه الصور تمثل الحيوانات التي كان يصطادها الإنسان في تلك الفترة لأكلها، لأنه كان مدفوعا في فنه